في أنَّ فنّ الحرب امتداد لفنّ الحبّ

أحمد عمر

أشهر عبارة من عبارات فنّ الحرب أنّ الحرب امتداد للسياسة، مع العدوّ وليس مع الشعب كما في بلداننا الشمّاء، التي لا يعلو فيها صوتٌ على صوت «المعلّمة»، وهي تشبه عبارة إنّ الفجر امتداد لصوت المجتمع، وكنت أظنّ أنّ الرئيس كلّ المجتمع، وأنّ الحرب امتدادٌ للحبّ. السياسة قصرٌ والحربُ حديقته.

تقول القصة: إنّ الملك الصيني هوورولو في مملكة تشي سمع بمهارة الجندي سون تزو التخطيطية، فأمره بتأليف كتاب في فنون القتال، فكتب له كتابَ «فنّ الحرب»، وإنّ الملك سأله بعد قراءته: «هل يمكن اختبار الخطّة التي وضعتَها ميدانياً على ربّات الحجال؟». أي ملك هذا الذي خطر في باله تجنيد «ذوات الخدور» في ذلك العهد القديم؟

تتابع القصة: إنّ سون تزو اختار 180 امرأة من جواري الملك (العدد ليس 40، وهذه علامة على صدق الرواية)، فقسّمهن إلى فرقتيْن كما في الشطرنج، ثمّ أمرهن بأن يتسلّحن بالحِراب، ثمّ خاطبهن قائلاً: إنكن تعلمن الفرق بين المقدّمة والمؤخّرة، وبين جهتي اليمين واليسار؟ ثمّ أمَرَ عليهن محظيتيْن من محظيات الملك، وأمرهن بإصدار أمر: إلى اليسار دُر، فانفجرت المجنّدات المسلحات بالضحك (يمكن تذكّر فيلم «إسماعيل ياسين في الجيش» المأخوذ عن فيلم «شارلي شابلن في الجيش»، وأمثالهما كثير)، وأغلب الظنّ أنّهن ضحكن لأنّ سهام الحاظهن قاطعة في غِمدها، وهي أمضى الأسلحة، فلمْ الحراب والرماح، يا سو؟

أمر سون تزو بإعدام قائدتي المجموعتيْن، فذهلن جميعاً، لأنّ عاقبة الضحك في تمرين المعركة هي الإعدام (!). كان الملك يراقب التدريبات من السدّة الملكية، فوجد من إعدام أحسن جواريه وجداً شديداً، فأرسل إلى سون تزو قائلاً: «خلاص يا سون، فهمنا الدرس، وقد عفوت عن القطتين ولن يهنّا لي عيش من دونهما، فقلبي أصبح «ممرمر مما». لكن سون تزو اعتذر عن طاعة الملك، فهو القائد في المعركة، فهي حرب، وليس «خط جمبري»: «بتكليفكم لي قيادة قواتكم العسكريّة، فإني الأمر الناهي». أعدم «المقرود» الغزالتيْن، أمام الملك والنسوة المجنّدات، ففعل الدرس أثره فيهن، وأمَر عليهن غزالتين جديدتيْن، وقال للملك: «الجنديات على أتمّ الاستعداد للحرب، ولو أمرهن الملك بخوض البحر لخضنه معه».

تقول القصة إنّ حزن الملك على طبيبته لم يبلغ التلف، فعنده ظبا، وغزلان كثيرة، لكنّه حرد عن دعوة سون تزو لحضور العرض العسكري بمناسبة مجهولة، ليست الجلوس على العرش، وأمر بإسدال الستار على المسرحية الدامية، فقال سون تزو ساخراً من ابن الشمس المقدّس: «إنّ الملك لا يقرن الأقوال بالأفعال، ويبدو أنّ كلمته أثّرت في الملك، فأمَرَه قائداً للجيوش، وأرسله ليحارب مملكة تشو المجاورة، فهزمها، وشقّ طريقه إلى عاصمتها ينع، ثم إلى الشمال، فزرع الخوفَ في مملكتي تشي وتشن، وقطف محصول سنبلة الخوف سبع سنابل، ونصراً بعد نصر. تروي لنا المخطوطات الصينية كيف انتصر سون تزو بجيش قوامه 30 ألف جندي على جيش عدوّه الذي كان قوامه مائتي ألف جندي، لا يعرفون جهة اليمين من جهة اليسار.

من أشهر مقولات سون تزو: إن كنتَ تعلم قدراتك وقدرات عدوّك، فخض مائة معركة، وإن كنتَ تجهل قدرات عدوّك، فأبشر بطول سلامة يا جاكي شان.

في هذه القصة قطائف (عسكريّة وليس حلويّات) ولطائف، وكنت أظنّ وأنا أطالعها أنّ سون تزو سيجنّد الجواري كنساء طروادة، ويرسلهن إلى المعركة وهنّ بكامل زينتهن، وما أن يراهن فرسان العدوّ، حتى يقعوا في حبالهن وتتكسر نصال الحُسام على نصال الغرام، لكن القصة عسكريّة خالصة، وفيها تدبير عسكريّ مكين، وإنّ ظني ذهب بعيداً، لأنّ قلبي «محرمر مما». وإنّ الدرس الأول هو أنّ الحرب حتم وقضاء مبرم، فهي امتداد للحياة، أما الدرس صفر، فهو: «ادعس على قلبك بالجزمة، وليس لك إلا الصبر».

الوطن حينما يكون حبيباً

عبد الحكيم حيدر

للشاعر الألماني هاينرش هاينه مقولة مفادها: «في ما مضى كان لي وطنٌ حبيبٌ». وتقول الشاعرة الفلسطينية الراحلة فدوى طوقان «البيت وطنٌ».

البيوت تلك المساحات القليلة التي بالكاد نعيش فيها، ونمشي بجوار الحائط أو أكثر من ذلك، كي يَمرّ بسلامة يومُنَا من غير نكدٍ أو مضايقاتٍ، لنا أو لغيرنا. ما علاقة هذا كلّه بذلك الحُبّ المفقود؟ وكيف لم نحافظ على مودة ذلك الحبيب/ الوطن؟ وهل كلّ الذنب يُلقى على المواطن الوحيد، سواء ظلّ في وطنه أو تركه مغلوباً أو مهاجراً أو معتزلاً أو حتى وهو يعيش على حافّته في ضياعٍ أو في سكون واكتفاء؟ ما الذي يوصل الحُبَّ وما أسباب ذبولِه أو نقصانه؟

لا أحبُّ الأغاني التي تُحرّض على المحبّة، فالمحبّةُ لا يُحَرّض عليها، ولا أحبُّ الأناشيد في المحبّة، خاصّة تحت تأثير التوجّه السياسي، فكلّها أشياء لا تخدم سوى السلطة، ومع ذلك، لا مانع أن تشعر بالحنو تجاه شجرة «تبق» في شارعك القديم أو خيّاط أعمى يعمل بالإبرة على «عراوي الجلاليب» ليل نهار أو ذلك «الغيط» الذي عملتْ به صغيراً أو ذلك القمر السهران الذي كان لا يفارق سطحَ منزلك أو تلك «الترعة» الصغيرة التي عُمتَ فيها واصطدت الأسماك من مياهها أو ذلك القطار الذي يحمل عيدان قصب السّكر وكنت تعرف صوته وتحرّ الآن لان تراه وهو يتهادى بالقصب من بعيد في بلدتك الصغيرة. بعدما رفعوا قُضبانَه وباعوا أرضه دكاكين. وباعوا الخردة أيضاً للمصانع. فالوطن أشياء حميمة كنت تنظر إليها من على القنطرة كأحلام عميلةٍ، كعبور بنتٍ صغيرةٍ جميلةٍ وراء «الجاموسة» وفي يدها عُكّاز من شجر السنط، وكنت تبتسم على يدها الصغيرة وهي متحكّمة في العكّاز كنمر، ومنتبهة لرسن «الجاموسة» في ساعات العصاري، وهي ذاهبة بها إلى «الترعة» كي ترعى نبات الحلفاء على الجرف. أما عيونها الزرقاء، فتلك حكاية أخرى، وخاصة حينما ترفع عُكّازها للعيال، وتخطف عود القصب الساقط من القطار.

محبّة الوطن هي ألا أنسى ما حييت ليلةً جميلةً نمتُ فيها على محطة الجيزة، ولم يكن في جيبي أزيد من جنيه واحد. وبعد الفجر بقليل، خرجت فتاةٌ جميلة ونفضت «الكليم»، ثم سقت صيّارتين على «البلكونة»، وما زلتُ كلّما مررت بمحطة الجيزة أُحسّ أنّه كان لي ذلك الوطن الذي كان في «بلكونة» قديمة لم أعُد أراها.

الوطن هو تلك الهواجس التي تكوّنت في داخلنا ونحن أطفال، وليست تلك الأغنيات التي أنطقتها السلطات بالسوط، فخرجت من أفواه المطربين والمطربات. الوطن الذي نحبُّ هو تلك الأحلام والأشياء الجميلة التي عاشت معنا ولم نُفرّط فيها، حاضرة أم غائبة، أم حتى تغييبها عنّا بفعل فاعل. الوطن نائم تحت ضلوعنا من غير سلطة أو خوف أو نِفاق، فهو يُشبه «دموعنا تماماً»، ونحن نبكي فقط من أجلنا نحن، لا من أجل «كارنيه» الحزب أو بعثة الحزب أو مكاسب اللجان أو السفر أو الجوائز أو الشلّة أو الثناء.... إلى آخره، نحن نحبّ وطن أرواحنا التي تعبنا فيه وحرسناه في داخلنا، حرسناه من أخطائنا وخطايانا ونَزَقنا من أجل أنفسنا، وليس من أجل أحد كان، أيّ أحد، وذلك هو الذي أظنه يبقى لنا من محبّة الوطن. ذلك الوطن الذي نراه في لحظات الصدق، ونراه في رائحة أولادنا حتى وإن قسوا علينا، ونراه أيضاً في حبيباتنا ونراه في الشجر الذي كان نابتاً بإهمال على حواف «الترع» ومحمّلاً بالزهر الجميل الذي ليس له رائحة كشجر السنط أو السيسبان أو الكافور، وكان ذلك الزهر يشبه أحلامنا ويشبه بيوتنا البسيطة وصحبتنا. الوطن هو سرّنا الحميم، سرّ ان نواصل الحياة، ونتسامح وننظر إلى السماء، فنرى طيورنا التي تحنو على ما صبرنا عليه وما سوف نصبر عليه في أيامنا، لم نطلب من الوطن أيّ شيء، سوى أن يحافظ على حسن مودتنا، لا نريد منه أيّ شيء آخر، سوى أن يتركنا في راحة قبورنا أو عزلتنا، لا نريد مسلّاته، ولا صولجانه، ولا دباباته، ولا طائراته، ولا أغنياته، فقط، أن يتركنا لأحوالنا وحرّياتنا وكرامتنا وجنوننا وقبورنا وطيورنا وكتبنا وأقلامنا وشبابيكنا القديمة، لا نحبُّ هؤلاء العوائل الذين يقفون ما بين المرء ووطنه، ما بين القلب ونبضه، وما بين السرّ وصاحب السرّ.

ضد الممانعة ولكن مع فلسطين

دلال البزري

مما جاء في شريط «يوتيوب» راجٍ، أخيراً، مدير إحدى الأقنية الإخبارية العربية جالساً على كرسي موثوق، يقسّم عالمنا إلى فُسطاطيْن. والعالم الذي يراه لا يمكن أن يكون واحداً. من جهة «مليون فلسطيني سقف أحلامهم رغيف خبز»، ممزراً شريطاً عن تهافت أهل غزّة على طعام أغيثوا به، بهنادمهم البائس الحزين وضياعهم وجوعهم، وسط بيوتهم المدمّرة وارتفاع الغبار... ومن جهة أخرى، «على بعد ثلاث ساعات بالطائرة»، دولة الإمارات التي «قزّرت الاستثمار في الذكاء الاصطناعي بمبلغ مائة مليار دولار»، والمملكة السعودية الذاهبة أيضا نحو استثمارات في المجال نفسه بقيمة 40 مليار دولار. ويتابع تمييزه بين الاثنين: «من جهة مجاعة، ومن جهة استثمارات بالذكاء الاصطناعي». فيخلُص إلى أن هذا «ليس شرق أوسط واحد»، إنما «شرقين أوسطيْن». الأول، المفجوع القاتمة، «أولويته المقاومة ونتيجته المجاعة». والثاني «أولويته السلام ونتيجته النجاح». الأول عائش في الماضي والثاني يصنع المستقبل.

ولا يخفى أن هذا المدير لبناني. وصاحب تاريخ في معاداته لحزب الله. وواضحٌ أنه ابتلع الطُعْم القديم، الذي رماه حزب الله على اللغة، فلكثرة ما اشتغل على احتكار حمل السلاح بذريعة المقاومة، كان لا بد لهذا الحزب أن يساوي بينها وبينه. بحيث أنها (المقاومة) هي الحزب والحزب هو المقاومة. خارج هذه الصيغة لا وجود للمقاومة، فصرنا نقول «راحت المقاومة، جاءت، ضربت، قزرت...»، ونقصد الحزب. وبذلك سهل على خصوم الحزب بعد أصدقائه أن يروا أي مقاومة هي حزب الله، والمدير الذي نحن بصدده لم يجدّ عن هذا الفهم. يتكلم عن «المقاومة» كمن يتكلم عن الحزب، ولا يعود يرى بذلك فرقاً بين الحزب وحركة حماس، بين الحزب وفلسطين. إنهم واحد. ومبرّرات رفض الأول هي نفسها مبرّرات رفض الثانية والثالثة.

إنها «العزسَة اللبنانية» (العبارة للكاتب اللبناني هلال شومان). وهي تسمح برؤية الحرب على غزّة بالمقاييس اللبنانية نفسها، وبحركته الذهنية نفسها. مثلاً: في هذه المقارنة، وكما ابتلع مديرنا طُعم «المقاومة»، تحمّل عقله ابتلاع طُعم آخر: تلك الأوهام التي يفلح الحزب بتغذيتها إعلامياً أيضا، وقوّامها «وحدة الساحات». خصومة هذا المدير للحزب تجعله يُسقط هذه «الوحدة» على غزّة وفلسطين، وهو إسقاط يفيده بلؤمهما، انسجاما مع عدائه لحزب الله. إذ ينظر إلى ما يجري هناك كما لو كان ينظر إلى ما يجري في جنوب لبنان، فتتبيّن عليه مهمّة التوبيخ تلك.

عن «السلام» الذي عقدته الإمارات، وذاك الذي كانت السعودية تنوي عليه قبيل «الطوفان»، وقد عدّلته من بعده، يأخذ على الفلسطينيين أنهم أفشلوه. وهذه الفكرة سائرة وسط المعادين لحزب الله، أن السلام كان في متناول يد الفلسطينيين ولكنهم رفضوه، أطلقوا عليه النار. وحذفهم أجهضوا السلام. وهذه هي النتيجة. فيما هذا «السلام» الذي يتغنّى المدير بفضله على ازدهار الإمارات والسعودية لم يكن سوى تطبيع مجاني مع إسرائيل، يغلق صندوق الحقّ الفلسطيني بالمفتاح الصلب، ويسامل من «سلامه» سلاحاً ونووياً، تكافئهما أميركا عليه.

وهذا موقف «عميق» من الحقّ الفلسطيني، الغالبية العظمى من المعادين للممانعة أصبوا على التعبير عنه أخيراً، في الحرب على غزّة أنبوا الفلسطينيين. وميزّانهم «عدستهم»، ما يحصل في الجنوب اللبناني حصرا، وأوامر إيران بتوسيع «المشاغلة» أو عدم توسيعها، بتنفيذ من حزب الله. وكله يترجمونه بنوع من الرخاوة، في المشاعر والمخيّلة والأفكار، لدى تناولهم فلسطين والحرب، أو تحليلها. المجاعة في غزّة من أفعال المقاومة، رسالة أخرى يبثها الشريط. في وقت بدا فيه العالم أجمع، وحتى حلفاء إسرائيل، يشيرون بأصابع الاتهام إليها، لدورها الصريح في تجويع أهل غزّة، بعد قتلهم وتدمير بيوتهم وتهجيرهم، وملاحقتهم إلى حيث تأمرهم بالهروب... ينسى المدير أنه عائشٌ في هذا الزمن. وقد يكون ذلك طبيعياً إذا بقينا على «عدسته». فهو لا يرى إلا ماضياً، تمثله «المقاومة»، ماضيه الشخصي ربما، ويقارنه بمستقبل «تصنعه» الدولتان الرائدتان. مضيّعاً بذلك الحاضر، صانع المستقبل، بمشاركة الماضي. مع التاكيد، وشيءٍ من التهديد المبطّن، بأن الذي سيصنع هذا المستقبل سيكون «أذكى» من أصحاب هذا الحاضر الفلسطيني، الغزّي، بعون الذكاء الاصطناعي الذي يُستثمر به، وهو أرفع من ذكاء الجميع. وسوف يهزمكم يوما ما...

تمنح الحالة اللبنانية نفسها إلى المدير صاحب الشريط. من جهة، يصرخ أمين عام حزب الله حسن نصر الله بنصر حزبه متأهبا، راميا صواريخه على إسرائيل، يبلغ ذروة استنفاره بعد مقتل مسؤول من الحرس الثوري في دمشق. ومن جهة أخرى، تتصدّى زعامات طائفية له، أو تهدّده بالكوندرالية (تقسيم)، تصف نفسها بـ«السيادية»، ولا تقلّ عن الحزب استقواء بخارج يلعب في غير ملعبها.

الآن، تخيّل غزّياً يشاهد الشريط التانيبي هذا. أنتَ من الماضي، أنتَ مقاومة، أنتَ ضد السلام، لذلك أنت جائع، ضائع، وسط كارثته، بماذا يفكّر؟ ماذا يختار؟ كيف يختار؟ أين أخطأ؟ هل كان عليه أن يؤيد السلام، مثلا، ويذهب إلى السلطة، إلى الضفة الغربية، وهو محاصر، ليعلن انضمامه إلى «معسكر السلام»؟ ولكن هذا الخيار أيضا مستحيل. إذ اعتاد المدير على تحميل فشل السلام على كل الفلسطينيين، فكيف تستقيم إذن دعوته للانضمام الى المستقبل السلمي المزدهر، الذي لا مجاعة فيه ولا موت؟

يصدّق بعض مناهضي حزب الله على إحدى دعائم حركته: من أن ثمّة اندماجا تاما بين الممانعة وفلسطين. وذلك تكريسا للكذبة الدائمة أن قضية الممانعة هي فلسطين. لا يفصلون بين الاثنين. وغبار الحرب لا يساعدهم. ولا «عدستهم اللبنانية»، ذات الإطار الثابت المتحرّك، الذي يدور حول انتظار اللحظة الإقليمية الدولية، فيصيبهم الزمن بعصبهم، يرخي مفاصلهم، كما يصيب غيرهم من أصحاب الانتظارات الميؤوس منها.

هذا الخلط بين الممانعة وفلسطين من الصيغ المضيِّعة للحقّ الفلسطيني. والمطلوب الفصل بين الاثنين. نعم، ضد الممانعة، ولكن مع فلسطين.

> الخلط بين الممانعة وفلسطين من الصيغ المضيِّعة للحق الفلسطيني. والمطلوب الفصل بين الاثنين. نعم، ضد الممانعة، ولكن مع فلسطين

(كاتبة لبنانية)

مسار فلسطين الصعب بفرض وحدة وطنية غير متحقّقة

سمير الزبن

منذ قرّر الغرب حلّ «المسالة اليهودية» وتصديرها إلى المنطقة، تحوّلت فلسطين إلى ضحية مزمنة للتقاطع الغربي. الصهيوني لحلّ هذه المسألة، وباتت فلسطين القضية المركزية في المنطقة ومختبر المنطقة الذي احتجز تطوّرها، وموقعاً لتكفير الغرب عن جريمته بحقّ اليهود (الهولوكوست)، وتحوّل هذا التكفير عن الذنب إلى عداء تاريخي للفلسطينيين ودعم لجرائم الاحتلال في مواجهة الضحية المحتلة، وصولاً إلى العدوان الوحشي الممتدّ منذ ستة أشهر على قطاع غزّة الذي خلف عشرات الآف القتلى المدنيين، والذي لاقى دعماً وقحاً ومؤخراً وغير مسبوق من الأغلبية الساحقة من دول الغرب.

بفعل عوامل تتجاوز المنطقة وميزان القوى الإقليمي، والدعم الغربي للمشروع الصهيوني، وقعت النكبة الفلسطينية، التي كشفت، بشكل نهائي، عن الوجه السافر للمشروع الصهيوني، بوصفه مشروعاً استيطانياً اقتلاعياً. وجاءت النكبة التي شرّدت الفلسطينيين من وطنهم في 1948 عنواناً لانكسار المستقبل العربي. وعلى المستوى الفلسطيني شكلت تدميراً للوطن والمجتمع الفلسطينيين. وبات التاريخ الوطني الفلسطيني والتاريخ القومي العربي بعدها مختلفَيْن، وفي قطيعة مع ما سبق، بحيث شكّلت النكبة حدثاً تأسيسياً في الواقعيْن الفلسطيني والعربي، وانقطاعاً تاريخياً، ليس فقط لأنه رسم خريطة سياسية جديدة للمنطقة ومعطيات صراع سياسي جديدة، وأحدث واقعاً سياسياً ضاغطاً على الجميع في المنطقة، بل لأنه شكّل انقطاعاً ثقافياً أيضاً، بحاجة إلى إجابة ثقافية تجيب عن سؤال يتجاوز سؤال شكيب أرسلان: لماذا تقدّم الغرب ولماذا تأخّرنا؟ وليصبح: لماذا هُزمنا ولماذا انتصروا؟

ظهر المشروع القومي في واحدة من لحظات تاريخ المنطقة ردّاً على سؤال الهزيمة والتأخّر معاً، ومع وصول ممثلي هذا المشروع إلى السلطة في مصر في انقلاب/ ثورة 1952. اعتقد أنصار هذا المشروع وغيرهم أن الحلم الفلسطيني مسألة وقت ليس إلا، فالعملاق العربي خرج من القمقم، ولا أحد يستطيع إعادته، فهذا العملاق هو الذي سيعيد المنطقة إلى سياقها الطبيعي، وسيعيد للعرب كرامتهم وحرّيتهم وأرضهم السليبة، من دون أن تملك السلطات التي اعتبرت ممثلة لهذا المشروع الأدوات اللّازمة لإحداث تغيير جذري في بلدانها، وفي ميزان القوى مع إسرائيل الوليدة. أخذت الحكاية في العام 1967 مساراً آخر، فإذا كان المشروع الصهيوني قد هزّمَ عند تأسيسه جيوش الدول العربية المستعمَرة أو الخارجة حديثاً من الاستعمار، فإنه في 1967 هزم المشروع المستقبلي العربي، على افتراض أن المشروع القومي كان يجيب إجابات صحيحة عن أسئلة المستقبل. إن تسمية هزيمة 1948 النكبة وهزيمة 1967 النكسة كان تعبيراً عن العجز في مواجهة المشكلة حتى من خلال الاعتراف اللغوي بحقيقة ما حصل بوصفه هزيمة. التسميتان احتياليتان، حاول مخترعوهما حجب الواقع، وبالتالي، استخدمتا للتغطية على ما جرى، وهي مصطلحات تبريرية. وجاء وصف «النكسة» لهزيمة 1967 ليبرّر بقاء السلطة بعد هزيمتها، وأن ما جرى ليس سوى نكسة صغيرة في الوراء، وأن هذه النكسة لن توقف المشروع القومي. وبذلك ما زال المشروع القومي مستمرّاً وأنه سيتجاوز نكسته وسيرّ على العدوان، وسيستعيد الأرض التي سلبت لاحقاً وسابقاً. ولكن المشروع القومي دخل المستنقع بعد هزيمة 1967، وبعد حرب تشرين الأول/ أكتوبر 1973 عن كيفية دخول حركة التحرّر في إطار التسوية المحتملة بعد تلك الحرب، فجاء الشعار الشهير ببناء «السلطة الوطنية» على أي جزء يتحرّر من فلسطين، وكان هذا الشعار مدخلاً لتحويل حركة التحرّر إلى جزء من آليات عمل المنطقة وقواها وبناها الإقليمية. كان يجب تأديب حركة التحرّر عدّة مرات حتى تتكيّف، وكان التكيّف النهائي بتوقيع اتفاق أوسلو الذي أدخل حركة التحرير في العاصمة كيغالي. وقد مكّنت بطاقات الهوية، التي تحدّد الانتماء، العرقي لأصحابها، تلك الميليشيات من التعرّف إلى كل من ينتمي لـ«التوتسي» وإعدامه فوراً. ثم ما لبثت أن خرجت الأوضاع عن السيطرة بعد اتساع أعمال الإبادة لتشمل معظم أنحاء البلاد، إلى درجة أن أعداداً كبيرة من «التوتسي» صفّتهم تلك الميليشيات، بسبب شكولٍ في ولائهم لإثنيتهم أو رفضهم الاشتراك في المجازر التي نفذت بحقّ «الهوتو».

أسباب كثيرة كانت خلف تلك المأساة المروّعة، في مقدمتها الإرث الاستعماري، حيث ارتبط «التوتسي» بعلاقات مصالح مع سلطات الاستعمار البلجيكي، وهو ما عمّق الانقسام في المجتمع الرواندي، فقد رأى «الهوتو»، الذين كانوا يعانون من التهميش الاقتصادي والاجتماعي، في «التوتسي» حلفاءَ للاستعمار. كما فشلت الدولة الوطنية في تحقيق الحد الأدنى من التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وحلّ مشكلة الاندماج الوطني، وإدارة التوتّر بين الإثنيتيْن المتصارعتين. يُضاف إلى ذلك دورُ الإعلام في تأجيج مشاعر الكراهية والعنصرية والتفوّق الإثني والقبلي، هذا من دون إغفال تقاعس الأمم المتحدة والدول الغربية الكبرى التي سقطت في أول امتحان أخلاقي وإنساني بعد نهاية الحرب الباردة. لقد كشفت الإبادة الجماعية في رواندا، من بين أحداث ووقائع أخرى، زيف النظام العالمي الجديد، الذي يُفترض أنه قام على مبادئ الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان، إذ فشلت مؤسّساته، وفي مقدّمتها الأمم المتحدة، في وقف المقتلة الرواندية التي ظلت مفتوحة أكثر من ثلاثة أشهر. ورفضت القوات البلجيكية والفرنسية التدخل لمنع الإبادة الجماعية بحقّ «التوتسي»، ضمن حسابات الصراع على إعادة تشكيل مناطق النفوذ في شرق أفريقيا مطلع التسعينيات، خصوصاً بين فرنسا التي ساندت «الهوتو» والولايات المتحدة التي راهنت على «التوتسي»، من خلال جبهة رواندا الوطنية.

تضخُّ الإبادة الجماعية في رواندا بدروس وخلاصات توجب الوقوف عندها، سيما بالنسبة للمجتمعات الأفريقية التي لا يزال التوتر الإثني والقبلي قنبلة موقوتة في معظمها. ومع غياب نخب سياسية مؤهلة لإدارة هذا التوتر بأقلّ التكاليف الممكنة بتعزيزها الهوية الوطنية الجامعة في مقابل الهويات الإثنية والقبلية الفرعية، تزداد مخاطر الانجرار، في غير بلد أفريقي، إلى دوّامة عنف قد تتحول، بسهولة، إلى إبادات جماعية أخرى لا تقل فظاعاتُها عن التي جرت في رواندا أمام مرأى ومسمع من العالم.

> التصدّي للجريمة في غزّة مسؤولية الجميع، ولا أحد سيكون بريئاً من المسؤولية في حال نجاح إسرائيل في حربها المستعرة لإبادة الشعب الفلسطيني

قدرة الوطنية الفلسطينية. لذلك خلال سنوات قليلة، وبفعل الوقائع التي اتخذت تتكرّس على الأرض، بدأت حركة التحرّر المحلقة في سماء الحلم تنزل إلى أرض الواقع، لتتحوّل إلى عضو في النظام العربي الرسمي، ومن ثم تبحث عن آلية للتكيّف مع ممكنات المعطيات السياسية في المنطقة، وبدا البحث مبكّراً بعد حرب تشرين الأول/ أكتوبر 1973 عن كيفية دخول حركة التحرّر في إطار التسوية المحتملة بعد تلك الحرب، فجاء الشعار الشهير ببناء «السلطة الوطنية» على أي جزء يتحرّر من فلسطين، وكان هذا الشعار مدخلاً لتحويل حركة التحرّر إلى جزء من آليات عمل المنطقة وقواها وبناها الإقليمية. كان يجب تأديب حركة التحرّر عدّة مرات حتى تتكيّف، وكان التكيّف النهائي بتوقيع اتفاق أوسلو الذي أدخل حركة التحرير في العاصمة كيغالي. وقد مكّنت بطاقات الهوية، التي تحدّد الانتماء، العرقي لأصحابها، تلك الميليشيات من التعرّف إلى كل من ينتمي لـ«التوتسي» وإعدامه فوراً. ثم ما لبثت أن خرجت الأوضاع عن السيطرة بعد اتساع أعمال الإبادة لتشمل معظم أنحاء البلاد، إلى درجة أن أعداداً كبيرة من «التوتسي» صفّتهم تلك الميليشيات، بسبب شكولٍ في ولائهم لإثنيتهم أو رفضهم الاشتراك في المجازر التي نفذت بحقّ «الهوتو».

أسباب كثيرة كانت خلف تلك المأساة المروّعة، في مقدمتها الإرث الاستعماري، حيث ارتبط «التوتسي» بعلاقات مصالح مع سلطات الاستعمار البلجيكي، وهو ما عمّق الانقسام في المجتمع الرواندي، فقد رأى «الهوتو»، الذين كانوا يعانون من التهميش الاقتصادي والاجتماعي، في «التوتسي» حلفاءَ للاستعمار. كما فشلت الدولة الوطنية في تحقيق الحد الأدنى من التنمية الاقتصادية والاجتماعية، وحلّ مشكلة الاندماج الوطني، وإدارة التوتّر بين الإثنيتيْن المتصارعتين. يُضاف إلى ذلك دورُ الإعلام في تأجيج مشاعر الكراهية والعنصرية والتفوّق الإثني والقبلي، هذا من دون إغفال تقاعس الأمم المتحدة والدول الغربية الكبرى التي سقطت في أول امتحان أخلاقي وإنساني بعد نهاية الحرب الباردة. لقد كشفت الإبادة الجماعية في رواندا، من بين أحداث ووقائع أخرى، زيف النظام العالمي الجديد، الذي يُفترض أنه قام على مبادئ الحرية والديموقراطية وحقوق الإنسان، إذ فشلت مؤسّساته، وفي مقدّمتها الأمم المتحدة، في وقف المقتلة الرواندية التي ظلت مفتوحة أكثر من ثلاثة أشهر. ورفضت القوات البلجيكية والفرنسية التدخل لمنع الإبادة الجماعية بحقّ «التوتسي»، ضمن حسابات الصراع على إعادة تشكيل مناطق النفوذ في شرق أفريقيا مطلع التسعينيات، خصوصاً بين فرنسا التي ساندت «الهوتو» والولايات المتحدة التي راهنت على «التوتسي»، من خلال جبهة رواندا الوطنية.

تضخُّ الإبادة الجماعية في رواندا بدروس وخلاصات توجب الوقوف عندها، سيما بالنسبة للمجتمعات الأفريقية التي لا يزال التوتر الإثني والقبلي قنبلة موقوتة في معظمها. ومع غياب نخب سياسية مؤهلة لإدارة هذا التوتر بأقلّ التكاليف الممكنة بتعزيزها الهوية الوطنية الجامعة في مقابل الهويات الإثنية والقبلية الفرعية، تزداد مخاطر الانجرار، في غير بلد أفريقي، إلى دوّامة عنف قد تتحول، بسهولة، إلى إبادات جماعية أخرى لا تقل فظاعاتُها عن التي جرت في رواندا أمام مرأى ومسمع من العالم.

هذا الدرس في الانتخابات البلدية التركية

شورش درويش

من بين كلّ ما جرى في المشهد الانتخابي التركي أخيراً، وتقدّم المعارضة، وبروز أحزاب جديدة في دائرة الضوء، جاء تقدّم حزب المساواة وديمقراطية الشعوب (ديم)، في الولايات الكردية، حدثاً تفصيلياً آخر قد يُساهم في رسم ملامح المشهدَيْن الانتخابي والسياسي التركييْن. وقد جاءت الانتخابات المحلية التي دخلها الحزب الموالي للأكراد عقب التراجع الحاد في مستويات التنمية في المناطق الكردية والإصرار على وضع عملية السلام الكردية التركية في الثلاجة، وقدرة الحزب الكردي على مراجعة خطابه، حين خاض الانتخابات الرئاسية والبرلمانية باسم حزب اليسار الأخضر، قبل عشرة أشهر، والذي وصف بأنه كان يفتقر للتلوين الكردي الذي بالشكل الذي تجسّده الغالبية الكردية. بيد أنّ ما حصل في ولاية فان تحوّل إلى حدث سرعان ما تجاوز حدود هذه الولاية الكردية الطرفية، إذ شهدت المدن الكردية في جنوب شرقي البلاد وأحياء الكردية في إسطنبول تظاهرات منددة بقرار منع رئيس البلدية المركزية في الولاية عبد الله زيدان، الحائز 55% من أصوات الناخبين، وتعيين وصيفه من حزب العدالة والتنمية، المتخلّف عنه بفارق شاسع، بديلاً منه، إلّا أنّ التراجع السريع بموجب القرار الذي أصدرته اللجنة العليا للانتخابات وتثبيت فوز رئيس البلدية ساهم في تبريد الاحتجاجات، فضلاً عن أنّ وقوف سياسيين معارضين، زعيم حزب الشعب الجمهوري أوزغور أوزيل، ورئيس حزب السعادة تمل كرم الله أوغلو، ووزير الثقافة الأسبق في حكومة عبد الله غول حسين جليلي، وسواهم من إعلاميين وسياسيين، في وجه سياسة العزل ساهم في التراجع عن القرار، إذ إنّ حالة التصدّي لسياسة العزل بحق رؤساء البلديات الكردية قد تحوّلت إلى منطقة سجال جديدة في مستوى خطابيّ المعارضة والسلطة.

عودة زيدان إلى منصبه صبيحة اليوم التالي، واحتشاد الآف في أسقبالته، ومشاهد تنظيفه شخصياً أحد الشوارع، تحوّلت كلها إلى لحظة أيقونية، فالإمساك بـ«المكنسة السحرية» وتنظيف الشوارع يشي بمعاني الانتماء للمجتمع المحلّي والاستعداد للخدمة العامة، على ما قالته وقائع تركية عن هذه المسألة الرمزية، فالرئيس أردوغان، نفسه، الذي ساهم في حملة تنظيف مرافق إسطنبول المتسخة حين ترأس البلدية، نجح في تعزيز هذه الصورة قبل أن ينزّاح نموذج رؤساء بلديات «العدالة والتنمية» إلى التصرف مسؤولين يفتقرون لحساسيّة المنصب التي تتطلّب شيئاً من التواضع. شيء آخر يمكن أن يُقرأ في حادثة زيدان، مفاده أنّ الحزب الموالي للأكراد قادر على إنتاج قيادات تحظى بعمق شعبيّ واسع، بعد سجن زعيمه الأكثر شعبية صلاح الدين ديمرتاش. ولعلّ مسألة إنتاج القيادات الكارزمية كان من تفصيلات المراجعات التي قام بها الحزب بُعيد الانتخابات البرلمانية الفائتة. أما الآلاف في شعارات المتظاهرين الأكراد، واستعارتهم عبارات من صندوق التسعينيات، نحو «تعيش قلعة فان» أو حتى الاتساع في ترديد هتاف «المقاومة حياة»، وهو في الأصل شعار حزب العمّال الكردستاني الآثير منذ انطلاقته في نهاية الثمانينيات، فهو يعني أنّ تطويق الصوت الكردي بات أصعب في ظلّ مسألتين رئيسيتين. الأولى: صدمة الفريق الحكومي من هول الخسارة، لا في الولايات الكردية فحسب، بل أيضاً في المساحات التي سبق له أن بسط حضوره فيها، وعدم قدرته على استرداد اللوايتين المفتاحيتين أنقرة وإسطنبول، وبفارق كبير، الأمر الذي جعل الخسارة المرتفعة في الولايات الكردية حدثاً جانبياً، وجعل من الخوض في تفاصيلها بممارسة العزل المباشر للرؤساء المنتخبين والتوسّع في ملاحقة المتظاهرين قد يزيد من إرباك الفريق الحكومي حال خروج الأوضاع عن السيطرة، فيما ترتبط المسألة الثانية بجدّية المراجعات التي قدّمها الحزب الموالي للأكراد لجهة مطالبة الطبقات الشعبية له بخطاب أشدّ تمايزاً يُعبّر عن البعد القومي الكردي. وبطبيعة الحال، كان لقرب احتفالات «نوروز»، في 21 مارس/ آذار، من موعد الانتخابات أن يمدّ الناخبين بطاقة إضافية، ذلك أنّ «نوروز» هذا العام شهد مشاركة جماهيرية ضخمة تلقّت جرعة كبيرة من الهتافات القومية الكردية وأخرى مناوئة للسلطة.

> عزّز حزب المساواة وديمقراطية الشعوب موقعه في خريطة البلديات

عزّز حزب المساواة وديمقراطية الشعوب موقعه في خريطة البلديات، وتمكّن من الفوز بعشر بلديات، مقارنة بثماني بلديات في انتخابات 2019 التي خاضها باسم حزب الشعوب الديمقراطي، وهي مسألة تعيد الأمل بجدوى الخطاب القومي، وتقديم مرشّحين أكثر تماسّاً مع السقف الشعبي المتضرر من سياسات الإهمال الحكومي، وذلك كلّه في ضوء اتباع الحكومة سياسة تعيين الوكلاء بدل رؤساء البلديات الأكراد الذين يعزلون عقب الانتخابات، وهي مسألة عمّقت مشاعر فقدان الثقة بالعملية الانتخابية وجدواها، غير أنّ الاحتجاجات لأجل استرداد ولاية فان، قد تتحوّل إلى نموذج شعبي يتّبعه أنصار حزب المساواة والديمقراطية في حال تعرّ

«العربي الجديد» في عيد ميلاده العاشر

كمال عبد اللطيف

شكّل اسم «العربي الجديد» عنصرَ جاذبيةٍ وجُرأةٍ، وقد اختار المَوقِعُ الإلكتروني أنْ يُطِلّ على الواقع العربي وهو يحمل اسماً مُركّباً في 30 مارس/ آذار 2014، في زمن ساد فيه الاعتقاد بنهاية المشروع القومي، وتراجُع أسهمه ودرجات حضوره في السياسات العربية. استطاع الموقع أن يكمل عقداً من حضوره الفاعل، والمتفاعل مع كلّ ما يجري في المحيط العربي وفي العالم. وخلال سنوات عشر مَرَّت بسرعة، يحقّ لقرّائه أن يتساءلوا عن الأدوار والخدمات التي صنعت هذا المِنْبَر في دائرة الإعلام العربي، كما يحقّ لهم، التفكير في سمات الجِدّة التي رسمت الموقع، وهو يواجه التحوّلات الجارية في عالمنا.

كان عنوان مقالتي الأولى في الموقع، في 4/3/ 2014، «العربي الجديد... أفقٌ وطريق». وكان اسمُه قد شكّل في ذهني عنصرَ جُرأةٍ وجذب. انطلقتُ في تحريره (العنوان) من الإيمان بأنّ من يقف وراء المشروع يتوخّى الإسهام في إعادة بناء المعالم الكبرى لعروبة المستقبل، عروبة التحديث والتحوّل الديمقراطي. وضمن هذا الأفق، اخترتُ الإسهام طوال سنوات العقد التي اكتملت بحلول إبريل/ نيسان 2024. لستُ هنا بصدد تقديم ما أنجزت من مقالات في صفحة الرأي، فهذه مسألة صعبة، وسأكتفي بالقول إنّني كنتُ وما زلت أمام رحلة في الزمان وفي البحث والكتابة، بمختلف صعوباتها ومفارقاتها وتناقضاتها، رحلة في التاريخ بكلّ ما يحمله من تعقيد وعناء، وبكلّ ما يُفجّره من مدّ وجزر. اخترتُ الإسهام في ما اعتقدت أنّ اسم الموقع يُشير إليه، أيّ الإسهام بصورة تسمح بمواجهة أبرز التحوّلات الناشئة في المحيط العربي وفي العالم، الأمر الذي ترتّب عليه تنويع المواقف والآراء المعنية بأسئلة وإشكالات الواقع العربي في جريانه.

كتبتُ المقالة الأولى تحت تأثير جاذبية اسم «العربي الجديد»، تحت تأثير الجرأة التي تمتع بها الاسم في ذهني، في زمن ساد فيه كثيرٌ من نفور من إعلام وأدبيات المشروع القوميّ التقليديّ، وشكّلت مقالات الرأي التي

> استطاع «العربي الجديد» أن يصنع لنفسه مكانة رمزيّة مهمّة في زمن قصير، وداخل دائرة إعلامية مليئة بالصراعات والتجاذبات المُركّبة والمُعقّدة

نُشرت فيه خلال السنوات العشر المنصرمة مناسبة متواصلة للتفكير وإعادة التفكير في بعض أسئلة ومعضلات الحاضر العربي، وفي كثير من أوجُه التحوّلات الجارية في عالمنا. وقد حرصت على معاينة كيفية عناية الموقع بأسئلة الراهن العربي في غليانه، بحكم أنّ صُدوره واكب جملة من الانفجارات التي لم تتوقف طوال سنوات العقد الثاني من الألفية الثالثة، حين وضعنا «الربيع العربي» أمام تجربة تاريخية غير مسبوقة، أسهمت وتسهم في صناعة كثير من تحديات ومعارك جديدة في الحاضر العربي.

وجد فريقُ العملِ نفسَه، في سنوات الصدور الأولى، أمام جملةٍ من الأحداث غير المُتوقّعة، انفجارات تملأ الفضاءات العامة في غالبية البلدان العربية، وتتّجه لتعميم الثورات العربية في العام 2011. وجد «العربي الجديد» نفسه أمام الخلافات العربية العربية، ثم أمام تركة الثورات التي تحقّقت، والأخرى التي انخرطت في مواجهة ممانعات وتداعيات مُختلفة. واجه «العربي الجديد» بعض مظاهر عودة الاستعمار إلى بعض البلدان العربية. وقد ترتّب عن كلّ ما أشرنا إليه نشوء ثوراتٍ مضادّةٍ حاول أصحابها مواجهة روح المدّ الثوري ورياحه، وحاولوا التصدي لكلّ ما يمكن أن يسمح بتحديث المجتمعات العربية وتحويلها نحو الديمقراطية. وتواجه الصحيفة اليوم، ومنذ السابع من أكتوبر/ تشرين الأوّل الماضي، معركةَ مقاومةٍ حرب إبادة الفلسطينيين التي أعلنها الكيان الصهيوني على غزّة. وفي قلب المذكور سابقاً، لم تكن مهمّة «العربي الجديد» سهلة، فواجه الطاقم المشرف على إعداده خلال السنوات العشر المنصرمة مجموعة من الأحداث والمواقف، وركّب في سياق هذه المواجهة الخياراتِ التي بدت له أكثر قرباً من تطلّعات «العربي الجديد»، الذي يَنخَرِط اليوم في لغة جديدة، مُتوخّياً التفاعل مع المشروع العربي في النهضة والتقدّم.

لم يكنْ عبورُ عقدٍ من الزمن بالأمر الهَيِّن، وقد تعاقبت على تدبير إعلام «العربي الجديد» وأعماله مجموعةٌ من الإعلاميين، واشتركت في ضبط تبويبه ومواده مجموعة من الصحافيين والخبراء، ونتصوّر أنّه نجح في تخطّي صعابٍ كثيرة اعترض طرائقه في العمل. ونتجه بمناسبة عيد ميلاده العاشر إلى أن نفكّر في مستقبله، في عالم تزايد فيه دور الإعلام في صناعة الأحداث ومواكبة المتغيّرات وتركيب البدائل بصورة مدهشة. فماذا ننتظر من موقع انتصر على كثير من الحواجز والعوائق التي واجهته خلال السنوات العشر الماضية؟ نعرف جوانبَ من الروح المهنية المُوجّهة لكثير من نواحي عمله، كما نعرف نوعية الحضور الرقمي، الذي يمنحه اليوم فضاءاتٍ ومساحاتٍ لا يتيحها النظام الورقي. نعرف أيضاً، نمط التطوّر الذي لحقه خلال سنوات العقد الذي عَبَر فصوله وأحواله، ومن حقّنا أن نتساءل، ماذا ننتظر منه اليوم، وقد انخرط في الأيام الأولى من سنته الجديدة؟

يقف المُتابِع لمحتوى ما ينشره «العربي الجديد» عند صور حرصه، خلال سنوات العقد الأول من عمره، على كيفيات تجديد وتطوير طرائقه في العمل، سواء في شبكة الملاحق التي صدرت عنه أو في قلب صفحاته الإلكترونية أو في نسخته الورقية. فقد استطاع أن يصنع لنفسه مكانة رمزيّة مُهمّة في زمن قصير، وداخل دائرة إعلامية مليئة بالصراعات والتجاذبات المُركّبة والمُعقّدة. وأتصوّر أنّ ما ساعده على تحقيق المكانة التي أصبحت له، يتمثل في أنّه حرص ولا يزال، منذ أعداده الأولى، على العناية المهنية بمختلف قضايا الواقع العربي. وقد عَايَنّا ونحن نتابع التحليلات والآراء التي تنشر على صفحاته، حرص طاقمه على الطابع المتنوع لما ينشره من مواقف وآراء، لتعكس صفحاته مختلف الحساسيات السياسية والثقافية، ومختلف المواقف التي تملأ الواقع العربي. وكان حرصُه على ما ذكرنا يعادل حرصه، في الآن نفسه، على تركيب ما يمكن أن يساهم في توضيح أفقه السياسي العام، الأفق الذي يتّجه لبنائه في عالم بدت عليه كثير من علامات التلاشي، كما بدت عليه، في الآن نفسه، علامات أخرى تشير إلى أطوار عالم جديد يتشكّل.

لا نتردّد في القول إنّ أهم مزايا «العربي الجديد» تبرز في احتضانه المواقف المختلفة والمتناقضة أحياناً، وسعيه الدائم لتحرير مقالاته ببلاغة مُبدعة، مُكثّفةً وكاشفةً لكثير من أوجُه الأحداث التي تركّب ملامحه العامة. وبهذه الطريقة، نسج لنفسه وسط خريطة الإعلام العربي والعالمي موقعاً وموقفاً، فتحول إلى مِنْبَر للتفاعل اليقظ مع مختلف ما يجري في العالم من أحداث.

(أكاديمي مغربي)

بأيّ حال عاد عيد المصريين؟

عمر سمير

عادةً ما ينتظر المصريون الأعيادَ بمظاهر البهجة والسعادة، وعبر الأنشطة والفعّاليات، من البيوت إلى الشوارع. وفي رمضان بالذات، قيلت أشعار في رمضانات مصر، فـ«رمضان في مصر حاجة تانية... والسّر في التفاصيل» بتعبير الفنان الإماراتي حسين الجسمي، في أغنيةٍ لا يستشعرها سوى مصريو الخارج، وغير المصريين ممن عاشوا الأجواء الرمضانية في مصر، لكن يبدو أنّ المصريين أنفسهم في الداخل لم يعودوا يشعرون كثيراً بهذه الأجواء منذ سنوات مضت، فمجتمعات «الكومباوندز» أو الأحياء السكنية المسوّرة تخلو من مظاهر رمضانية، وتعتبرها شعبيةً لا يجب أن تقترب من طبقتهم، وإن أرادوا الشعور بها ذهبوا إلى أقرب حيّ شعبيّ يتزيّن بزينة رمضان. لكن، هل ما زال البسطاء قادرين على الإحساس بفرحة العيد بصنعهم أجواءً رمضانيةً طوال الشهر، لاستحضار تلك الحالة الرمضانية الفريدة حقّاً في مصر؟ معدّل التضخّم تجاوز 33% في الشهر الماضي (مارس/ آذار). غالبية الأسر فقيرة ومُفقَرة، وغير قادرة على شراء ملابسَ جديدةٍ للعيد، وزحفت أفواج كانت تظنّ نفسها طبقةً وسطى نحو أسواق الملابس المستعملة، وانخفضت الأجور الحقيقية كثيراً رغم الارتفاع النظري للأجور النقدية، فحدّها الأدنى الذي كان يساوي 150 دولاراً في يناير/ كانون الثاني 2023 هو الآن لا يتجاوز 130 دولاراً، فيما تأتي مصر في ذيل قائمة الدول الأقلّ أجوراً في العالم، بمتوسطٍ أقلّ من 118 دولاراً، وانخفضت تحويلات ذويهم في الخارج نحو 25% في الأشهر الماضية. بهذه المعطيات، يستقبل المصريون هذا العيد. وهناك فارق كبير بين مسلسلات الإعلانات الرمضانية، التي تنادي بالمبادرة والإسراع بحجز وحدات سكنية في المشروعات الجديدة الفارهة بأسعار أكثر من خيالية، ونداءات الاستعطاف للتبرّع للمستشفيات المختلفة لعلاج أمراض السرطان، وغيرها، وهي حقوق أساسية للمواطنين انسحبت الدولة من أمامها بشكل كبير أو هي عاجزة عن تلبيتها، في بلد يفترض أنّ به نظام تأمين صحي شامل، لكنّه ينفق مئات المليارات على بنية تحتيّة لمشروعات جديدة، لن يستعملها غالبية المصريين المُفقرين، الذين وعدتهم محلات «الكحك» بتقسيطه بنكياً لأول مرة. حال غالبية الأُسر المصرية يُرثى له. ترى هذا في وجوه المتجوّلين في الشوارع والأسواق، ولا سيّما أسواق الملابس المستعملة التي لم يعد الحد الأدنى للأجور، المنتظر تطبيقه، قادراً على شراء طقم لكلّ فرد في الأسرة، ناهيك عن ملابس جديدة. خفّض المصريون غالبية استهلاكهم للسلع الأساسية رغم أنوفهم، مع ما يحمله هذا من تبعات صحّية محتملة، من تفاقم سوء التغذية والأمراض المرتبطة به، ومن قزامةٍ وولادات قيصريّة أو تبعات اجتماعية، تتمثّل في أعلى انخفاض في نِسَب المواليد، وربما نِسَب الزواج أيضاً، مع ارتفاع حدّة التوتّرات الاجتماعية، وحالات الطلاق، والسرقة، والمشكلات اليومية التي تواجه المصريين في الشوارع يومياً. ليس هذا فحسب، إذ يغرق المصريون في آلام حرب غزّة، التي كشفت وهم الصدارة الإقليمية، والقدرة على الفعل، والدور الوظيفي النشط، ليكتشف الجميع أنّ دولتنا، أكبر دولة عربية، غير قادرة على التحكم بمعابرها ولا حتى على إدخال المساعدات الإنسانية لدولة في جوارها المباشر، طالما اعتُبِرَت قضيّتها مركزيّة لشعب مصر، في تراجُع تامّ لثوابت الأمن القومي التاريخية والجغرافية، رغم وجود قراراتٍ دوليةٍ وإقليميةٍ وغطاء شعبي يسمح لأيّ نظام كان أن يخرج من هذه الحرب بطلاً قومياً، بلا كثير جهد أو عناء، سوى تنفيذ القرارات الدولية. ولو استمرت هذه الحرب على حدود بلد أفريقي أو أميركي لاتيني، لفعل نظامه أكثر بكثير مما فعله هذا النظام الذي لا يسمح حتى بالتظاهر للتعبير عن الغضب الكامن تجاه المحتلّ وحربه على الأطفال والنساء والشجر والحجر، خوفاً من أن تنفلت تلك التظاهرات وتخرج عن السيطرة، فيقبِضُ على من يرفعون علم فلسطين، وعلى مَن رفعوا شعارات مغايرة لفعّالية يتيمة نظّمها النظام نفسه، وكأنّ المعادلة: اغضب في صمت ومت كمداً، لكن

> وعدت البنوك وبيوت التمويل المصريين بتقسيط «كحك» العيد واللحوم وبعض المنتجات، وهو ما يتندّر به المصريون

الخارقة على الجهر بالحق، أوجدا له هالة من التقدير والاحترام لا يجسر على خدشها حتى أعتى المتنفذين في البلاد. فقد وهب هذا الرجل الشطر الأول من حياته للكفاح المسلّح لأجل استقلال وطنه من نير الاستعمار الفرنسي والإسباني الغاشم، مستلهما ثورة الشعب الفلسطيني ضد الإنكليز والصهاينة سنة 1936 التي تحدّث عن أنها فتحت وعيه على محاربة الاستعمار. أما الشطر الثاني من حياته، فنذره لمحاربة الفساد والاستبداد، حيث مشى على سكّة رفاقه المهدي بن بركة وشيخ العرب وعبد الرحيم بوعبيد والفقيه البصري، فعُذّب وحكم بالإعدام في فترتي الاستعمار والاستقلال، لكنه ظلّ كما هو، لم يبدّل تبديلا حتى بلغ أجله الذي كتبه الله له. ليرحل بغصّتين في حلقه، غصّة المغرب الذي تأجل فيه حلم الديمقراطية إلى أجل غير مسمّى، وغصّة فلسطين الشهيدة التي كانت بالنسبة إليه قضية مقدّسة، فرآها في آخر أيامه وقد تكالب عليها بنو صهيون ومن يقف بجنبهم من دول غربية عظمى وأنظمة عربية صغرى في سلم القيم والالتزام.

عاش المجاهد بنسعيد قرابة قرن، فما أصابه في الدعوة إلى الحقّ نصبٌ ولا وهن، ولا ثناه عن النضال من أجل الحرية والكرامة تخويفٌ ولا تهديد. وأكتفي هنا بذكر موقفٍ جليل من بين مواقفه التي لا يحصيها عدٌّ ولا حساب، موقفٌ يهمنا نحن قدماء معتقلي تزمامارت الرهيب. فقد كان سر هذا المعتقل الجهنمي قد أخذ ينتشر رويدا رويدا في مجتمع مغربي موشوم بالقهر والرعب. وكانت الثقة في تلك الحقبة المسمّاة سنوات الجمر والرصاص عزيزة حتى بين أفراد الأسرة الواحدة. وما أن التقطت القنوات الإعلامية الدولية الخبر وشرعت تتداوله بشكل متواصل، حتى هرع الإعلام الرسمي المغربي إلى تكذيبه، مدّعيا أن كل ما يروج هو مجرّد دعاية مغرضة تروم ضرب «الديمقراطية المغربية العتيدة». ولمّا قويت البلبلة وتناسلت الإشاعات، انقسم الناس بين مصدّق ومكذّب، فعمّت بذلك حيرة كبيرة واضطراب عارم، وأخذت أسئلة حارقة خرساء تُلهب الشفاه، فما وجدت لأحد من شجاعة وعزم لطرحها علانية توجّسا من سوء المصير. وهنا انبرى بن سعيد للساحة، وطلب من حلفائه في «الكتلة الديمقراطية» أن يجتمعوا لبلورة سؤال واضح وصريح كي يُطرح في البرلمان، فتلكأوا جميعهم وتماطلوا، وقال أحسنهم حالاً وكان معروفا بالخبط على الطاولات تظاهرا بالدفاع عن مصالح الشعب: «إن الظرفية غير مناسبة لطرح سؤال خطير كهذا...». وهل كان يناسبهم في شيء أن يغامروا بمصالحهم عبر إرباك الحاكم من أجل الاستفسار عن حفنةٍ من أبناء الشعب البسطاء الذين كان تقتيلهم في السر والظلام لا يثير فيهم حتى هزّ أكتافهم من اللامبالاة؟

وفي هذه الأجواء المشحونة بالخوف والترقب، تقدّم المجاهد محمد بن سعيد أيت يدر، وحيدا كالليث اليتيم، بعدما ضرب صفحاً بكل أنواع التخويف والمناورات والتهديدات، وأطلق السؤال القنبلة الذي زعزع البرلمان، وجعل أعضاءه يستغشون ثيابهم تخوّفا من سقفٍ قد يخرّ من فوقهم. فوقف أحدُهم من المنافحين عن الباطل يريد إسكاته، وكان وزير دولة حينها، فما كان من الرجل الأبي إلا أن رد عليه بهدوئه المعهود: إن لم تقفل فمك يا هذا فسوف أفضحك وأقول للملأ من تكون. ... والتمس المهدّد السلامة وأغلق فمه وكأنما ألقم حجراً. وقد كان لهذا السؤال ما بعده، لأن بقية الحكاية انتهت بالإفراج عنّا كما هو معلوم.

ومن مواقف بنسعيد التي أثارت جدلاً كثيراً ما جرى بينه وبين الحسن الثاني من شنآن في اللقاءات القليلة المباشرة التي كانت بينهما، فقد جرى لقاؤهما الأول بعد الاستقلال سنة 1980، فكان اللقاء، كما كان متوقّعاً، بارداً وخالياً من أي ودٍّ أو مجاملة، لتتتالى بينهما سلسلة من الوقائع طبعها عدم التفاهم والتصادم. وفي إحدى المناسبات التي استقبل فيها الملك بقصره بفاس رؤساء البعثات السياسية المتوجهة إلى أديس أبابا للمشاركة في القمّة الأفريقية، تقدّم رؤساء الأحزاب للسلام عليه، فركعوا له ثلاثاً كما هي العادة، ثلاث خطواتٍ تقريباً بين الركعة والركعة، ثم تهافتوا على يده يقبلونها ظهرا وبطنا، ولما جاء دور بنسعيد، اكتفى بوضع يده على كتف الملك، وحين هم بالانصراف، أوقفه وسأله برنة احتقار:

(كاتب وناشط مغربي)

محمد بنسعيد... جذر من سلالة الرجال في المغرب

أحمد المرزوقي

هو صنفٌ نادرٌ من الرجال. إذا حضر في لقاء أو مجمع امتلأ المكان بالمهابة والوقار والجلال، وإن كان يبدو بطربوشه، الوطني الأسود الذي لا يفارق هامته إلا عند النوم، شخصية وديعة مسالمة في منتهى البساطة والتواضع. يمشي في استكانة ويلتفت في استكانة، وتجرّ إليه منذ الوهلة الأولى نظرة هادئة مطمئنة وبسمة لطيفة صافية معلقة على شفتيه كوسام شرف، يرى فيها محبّوه شارة نصر خفية، ويرى فيها أعداؤه استفزاز متأهب صامت.

إنه محمد بنسعيد أيت يدر، الوطني المغربي الحرّ الذي ملأ دنيا العرب رفضا للظلم والاستعمار ومواجهة للفساد والاستبداد. مُعْلنها «لا» مدويةً طبعت مسيرته المديدة. لأنه مَرَد على قولها في الوقت الضاغط الحرج، حين تستسلم الرخويات السياسوية وتركع أمام جبروت السلطان، ويبقى هو وحده كالشجرة الصامدة التي لا تقوى على ثنيها الرياح العاتية.

مع أبناء شعبه ووطنه «كانت لاؤُه نَعمُ» بالاستعارة من قصيدة الفرزدق في حقّ علي زين العابدين بن الحسين، لأنه إنسان وديع يستهويه العيش مع البسطاء، حيث إن صدقه العميق في كل أمور حياته، وقدرته

> عاش المجاهد بنسعيد قرابة قرن، فما أصابه في الدعوة إلى الحقّ نصبٌ ولا وهن، ولا ثناه عن النضال من أجل الحرية والكرامة تخويفٌ ولا تهديد

الخارقة على الجهر بالحق، أوجدا له هالة من التقدير والاحترام لا يجسر على خدشها حتى أعتى المتنفذين في البلاد. فقد وهب هذا الرجل الشطر الأول من حياته للكفاح المسلّح لأجل استقلال وطنه من نير الاستعمار الفرنسي والإسباني الغاشم، مستلهما ثورة الشعب الفلسطيني ضد الإنكليز والصهاينة سنة 1936 التي تحدّث عن أنها فتحت وعيه

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد
(Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads